

إضاءات حول آثار ما قبل التاريخ في شرق السودان

قسم الآثار
جامعة الخرطوم

د. محمد الفاتح حياتي عبد الله الطيب

مستخلص:

تتناول هذه الورقة بعض المظاهر الثقافية لإنسان ما قبل التاريخ في كل فتراته بدءاً من العصر الحجري القديم، ومروراً بالعصر الحجري الحديث، وحتى فترة فجر التاريخ في شرق السودان والمناطق المطلة على البحر الأحمر. وقد اكتسبت هذه المنطقة أهميتها من الموقع الجغرافي المميز لساحل البحر الأحمر، فقد كان هذا الموقع سبباً في تلاقح الكثير من الثقافات، كما أنه كان بوابة حضارية منذ قديم الزمان مرت عبرها الكثير من المجموعات البشرية مهاجرة من الساحل الغربي للبحر الأحمر إلى جنوب غرب آسيا، وعبر سواحل البحر الأحمر إلى القرن الإفريقي، وإلى شمال إفريقيا (Amanuel 2019: 1) كما تشير الدراسات إلى إن الإنسان الماهر (الهمو إريكسنس) قد خرج من إفريقيا عبر البحر الأحمر ليتوجه صوب البحر المتوسط. تعتمد هذه الورقة على سرد الحقائق التاريخية التي تستند إلى البحث الأثري الميداني والتحليلي، وذلك من أجل الوصول إلى كنه الثقافات التي أثرت المنطقة خلال عصور ما قبل التاريخ بفتراتها المتعاقبة. وذلك يعني أننا اعتمدنا على نتائج تلك الأبحاث المنشورة في شتى مواعين المعرفة. وهذه الأبحاث على قلتها فإنها غطت مناطق عديدة من إقليم شرق السودان.

أجريت العديد من الأبحاث الأثرية التي تتعلق بآثار ما قبل التاريخ في شرق السودان، وتشير النتائج إلى أن المنطقة كانت تتميز بالثراء البيئي الذي جذب الإنسان للعيش فيها، ما يعني أن المنطقة قد ازدهرت بشكل ملحوظ خلال العصر الحجري القديم، فقد كانت كل المقومات التي تعين الإنسان على العيش متوفرة، سواء كانت مصادر القوت المتنوعة كالطرائد والثمار متوفرة، هذا إضافة إلى المادة الخام التي صُنعت منها الأدوات الحجرية، إذ وفرت الجبال المنتشرة في أعماق الصحراء الشرقية وساحل البحر الأحمر الغربي أنواعاً من الحجارة التي صنع منها إنسان العصر الحجري القديم مختلف الأدوات الحجرية. وخلال مرحلة ما قبل التاريخ المتأخرة لعب البحر الأحمر دوراً كبيراً في نقل الثقافات من وإلى الداخل الإفريقي وإلى

الجزيرة العربية، فإن مرحلة إنتاج الطعام تعد نوعاً من التطور الاستثنائي في حياة الإنسان، وكان للبحر الأحمر الأثر الواضح في نقل ثقافة الإنتاج، وذلك يدل على أن المنطقة لم تكن خالية من السكان خلال تلك الفترة، بل كانت ترفد المناطق الأخرى خلال مرحلة إنتاج الطعام (Mohammed-Ali 1984).

توصي الدراسة بزيادة معدل البحوث الآثارية والبيئية والإثنوغرافية في المنطقة حتى تغطي كل المنطقة، فهي ذات مساحة شاسعة تحتاج إلى مجهود تشارك فيه الجهات الإدارية والأكاديمية وحتى منظمات المجتمع المدني يمكنها المشاركة في هذا العمل.

Abstract:

This paper presented some cultural aspects of prehistoric cultural phases in all its chronology in eastern Sudan and the Red Sea region. This region has gained its significance from the distinguished geographic factors that related to the Red Sea coastline, this location has created a homogeneity of many cultures throughout the vast area closed to the Red Sea coast and beyond, moreover, the Red Sea has been a cultural gateway and corridor since ancient times, it has been a pathway of migration of early human from the western coast to southwestern Asia, and to move through the coasts to the horn of Africa and North Africa (Amanuel 2019: 1). Reconnaissance's also shown the Homo Erectus dispersal, where he has left Africa through the Red Sea toward the Mediterranean area, therefore, although there is a semi consensus on African origin of early humans, there is disagreement about how and when they dispersed, nevertheless we don't have decisive results.

This paper relies on narrating the historical facts based on archaeological field research, in order to reach the nature of the cultures that influenced the region during prehistoric periods. This means that we relied on the results of this research published in various means of knowledge. Nevertheless, due to its scanty, but it covered many areas of the Red Sea region and eastern Sudan generally.

It has been conducted many archaeological researches related to prehistoric antiquities in eastern Sudan region, the results indicate that the region was characterized by the environmental richness and unpredictability what attracted people to live in, which means that the region has flourished significantly during the Palaeolithic, as all the characteristics ingredients and facilities that help man to live are available, whether the various sources of subsistence such as preys, grains and fruits are available, in addition to the raw material from which stone tools were

made, as well, the mountains along the eastern desert and the Red Sea was provided types of stones from which the Prehistoric human made various stone tools. During the late prehistoric stage, the Red Sea played a major role in the transfer of cultures to and from the African interior and the Arabian Peninsula, the stage of food production was a kind of extraordinary evolution in human life. The Red Sea had has a clear impact on the transfer of production culture, this indicates that the region was not empty of the population during that period (Mohammed-Ali 1984).

The study recommends increasing the rate of archaeological, environmental and ethnographic research in the region in order to cover the whole area, as it is very vast, that requires a great effort of administrative bodies, academic and even civil society organizations can be participated in this work.

مقدمة:

تعد المنطقة الشرقية من السودان ذات أهمية كبرى، باعتبار أنها تقع في الأجزاء الساحلية المطلّة على البحر الأحمر، إضافة إلى المناطق الداخلية التي تمتد بين سواحل البحر الأحمر وسهول البطانة التي تمتد من حدود نهر عطبرة شمالاً وحتى سهول منطقة القضارف الشاسعة جنوباً، ومن حدود الضفة الشرقية للنيل الأزرق ونهر النيل غرباً وحتى جبال البحر الأحمر في الناحية الشرقية. كل ذلك أعطى المنطقة أهمية وأن تكون جاذبة للاستقرار والعيش على مر العصور. وبالتالي فقد خلف السكان القدماء كثيراً من الأماط الثقافية التي حفرت الباحثين في مجال الآثار لسبر أغوار المنطقة والبحث عن مكنوناتها الثقافية والعرقية.

ومن الواضح أيضاً أن التغيرات المناخية والبيئية خلال عصور ما قبل التاريخ في المناطق الساحلية، وبشكل أدق خلال الفترة التي ساد فيها الجفاف قد ألقت بظلالها على حياة الإنسان، فقد انتقل الناس تدريجياً ليعتزلوا حول مجاري المياه الدائمة أو شبه الدائمة، وبكل تأكيد فإن النيل يمثل أهم تلك المصادر، ما حدا بالناس إلى النزوح تدريجياً من أعماق الصحراء إلى النيل (Barnard 2012: 4)

يرتكز تاريخ البحث الآثاري في هذه المناطق المذكورة على أهميتها ومكانتها الجغرافية والتاريخية، ولذلك فقد بدأ مبكراً واستمر إلى اليوم. هذا وقد لعب الموقع الاستراتيجي أيضاً في لفت انتباه الرحالة والمؤرخين إلى الحديث عن هذه المنطقة، إذ إن العبور والسفر على البحر الأحمر ومرور الباحثين بالمنطقة كان سبباً في أن يدوّنوا عنها بعض ما لاحظوه عن المباني والمنشآت المتعلقة بالموانئ، وكذلك حياة الناس وطبائعهم، وغير ذلك من الجوانب المادية وغير المادية.

كما كان توفر المادة الخام التي تصنع منها الأدوات الحجرية حافزاً لجعل المنطقة مأهولة بالسكان، سواء خلال عصور الجمع والالتقاط التي تميزت بالترحال والتجوال

المستمر وفقا لفصول السنة، أو خلال فترة انتاج الطعام. وقد وجدت دلائل الحجارة الخام المتعددة على شاطئيه، ومنها الريولايت (Rhyolite) والزجاج البركاني (Obsidian) ومختلف الحجارة البركانية وغيرها (Khalidi 2009).

البحر الأحمر منطقة تواصل ثقافي حضاري:

إن الناظر إلى جغرافية البحر الأحمر بتمعن يجد أن وجوده في منطقة حيوية كهذه لا بد أن يكون له شأن عظيم، فالرقعة الجغرافية التي يحتلها البحر الأحمر تتوسط منطقة الشرق الأوسط، فهو عبارة عن مقسم ثقافي يربط بين مناطق كانت ولا تزال لها أهمية ثقافية واقتصادية كبيرة، فعلى ساحله الشرقي مباشرة يقع الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية، ومن الناحية الشمالية، يتصل بالبحر المتوسط الذي يربطه ببعض أجزاء قارة آسيا، ومنها إلى أوروبا، ومن الناحية الجنوبية نجده يحاذي بعض أجزاء القرن الإفريقي، ثم إلى المنطقة الأم وهي شرق إفريقيا بمناطقها المتعددة، أما ساحله الغربي فإنه يمتد في مساحة كبيرة تشترك فيها عدة أقطار لتربطه بدواخل إفريقيا المختلفة، إذ لا يمكن أن تتخطى المجموعات البشرية القادمة من غرب ووسط وجنوب إفريقيا متجهة إلى الشرق هذا الأخدود دون أن تصطدم به ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا. ولعلنا نلمس ذلك في كثير من نواحي حياة الإنسان، لا سيما خلال العصور التاريخية بمختلف فتراتهما، ولا ننسى أيضا مرحلة العصر الوسيط التي شهدت حراكاً ثقافياً-دينياً واجتماعياً واسعاً في هذه المنطقة.

لطالما أن هذه المنطقة تمثل تلك الأهمية الكبيرة خلال مختلف عصور التاريخ البشري، فمن باب أولى أن تكون قد لعبت نفس الدور خلال عصور ما قبل التاريخ، ولا بد أن نصطبح معنا مسألة التغيرات البيئية والمناخية التي حدثت في العصور القديمة، إذ إننا نتحدث عن فترة يعود أقدم تاريخ فيها إلى حوالي مليوني سنة مضت، وذلك يبدأ مع حقبة البلايستوسين.

إن حقبة البلايستوسين (Pleistocene) كانت ذات أمد طويل وتميزت بالتقلبات المناخية والبيئية واختلفت بين منطقة وأخرى، وهي الحقبة الأولى من الدور الرابع أو العصر الرباعي (Quaternary)، وقد بدأت قبل حوالي 2 مليون سنة واستمرت حتى حوالي 10 آلاف ق. م (Kipfeir 2007: 245). ومن مميزات هذه الحقبة أنها كانت باردة جداً في بعض مراحلها، حتى أنها كانت تدعى بالحقبة الجليدية (Glacial Age) وذلك في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، بينما كانت تتخللها فترات دافئة (Interglacial). أما النصف الجنوبي من الكرة الأرضية فكان يتميز بوفرة الأمطار التي تفصلها فترات جافة.

خلفت حقبة البلايستوسين على الأرض حقبة الهولوسين، وكان لها سمات مغايرة عما كان خلال البلايستوسين، فإن هذه الحقبة قد صاحبها عدد من التغيرات والمميزات، إضافة إلى التطور الثقافي المصاحب، إذ أصبح من الواضح أن عجلة التطور الثقافي خلال هذه الفترة قد كانت أسرع مما كانت عليه في السابق أي خلال العصر الحجري القديم الموافق لحقبة البلايستوسين، فالناظر إلى التطور التقني خلال العصر الحجري القديم يلاحظ أنه كان بطيئاً، وبخلاف ذلك فإن التطور الثقافي الموافق لحقبة الهولوسين كان يسير بخطى حثيثة، فالدلائل

المادية خير شاهد على هذا الأمر عند دراستها (Arkell 1975: 3-12). أسهمت كل تلك التطورات المناخية والبيئية في تشكيل بيئة البحر الأحمر، مع العلم بأنها لا تنفصل عن المناطق المجاورة لها من الأوضاع البيئية والمناخية. شكلت منطقة البحر الأحمر الصلة بين الحضارات في مختلف مناطق السودان شرقه إلى جنوبه وشماله وغربه من جهة، وبين حضارات بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ومصر وشبه الجزيرة العربية من جهة أخرى (Adam 2017: 189). كما وجدت دلائل التواصل بين منطقة النيل والبحر الأحمر خلال فترات متعددة، فخلال فترة فجر التاريخ وجدت دلائل الفخار الذي يعود لحضارة كرمة في كلا المنطقتين- النيل والبحر الأحمر (Manzo 2012: 76) أيضاً كان للدراسات الأثرية التي قام بها فريق البحث السوداني الأمريكي الإيطالي إسهام كبير في معرفة ثقافة الإنسان الذي عاش في هذه المنطقة، وكذلك مقارنتها بما وجد في أواسط السودان وعلى النيل، فقد أثبتت الأبحاث أن هناك مواقع أثرية تضم دلائل تعود إلى العصرين الحجري الوسيط والحجري الحديث وتمتد من الألفية السادسة وحتى الألفية الثانية قبل الميلاد (Fattovich. et al 1984).

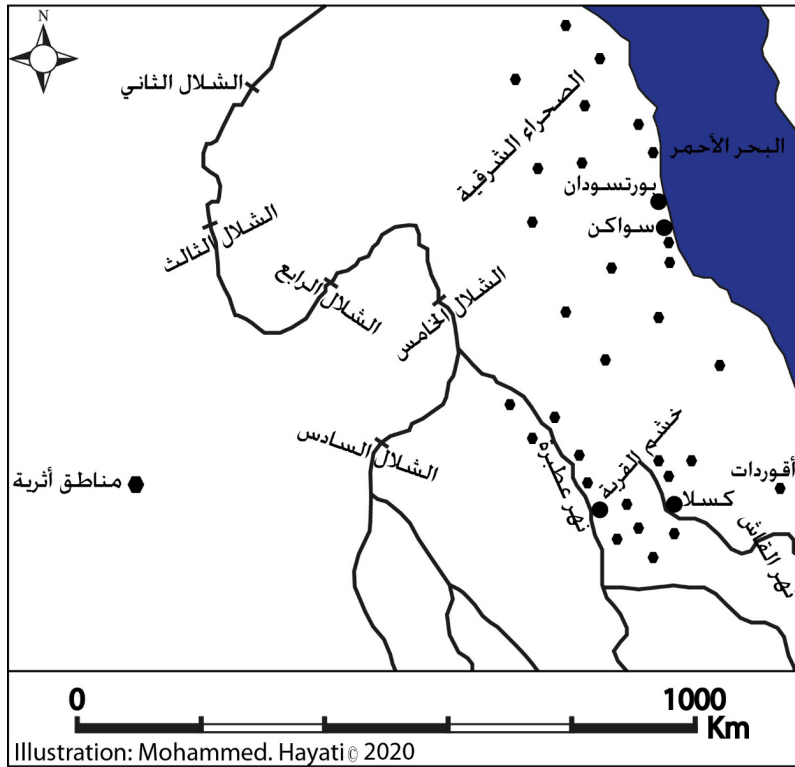
وعبر البحر الأحمر خرج الإنسان الأول من طريقيين، الأول منهما مر عبر وادي النيل إلى مناطق الشام الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط (Tchernov 1992)، أما الطريق الثاني فقد خرج عن طريق شمال شرق إفريقيا، وعبر باب المنذب، ومنهما إلى شبه الجزيرة العربية (Ambrose 2003)، وذلك خلال الزمن الذي عاش فيه الإنسان الماهر (الهومو إريكتس *Homo Erectus*) وهو الإنسان الذي عاش قبل حوالي 1.8 مليون سنة مضت، فقد وجدته دلائله القديمة في شرق أفريقيا، لكن بعد ذلك انتشر في مختلف مناطق العالم حيث وجدت دلائله في شرق آسيا (Gilbert and Asfaw 2008: 25)، إضافة إلى الإنسان العاقل (الهومو ساپينس *Homo Sapiens*).

تاريخ البحث الأثري في شرق السودان؛

بشكل عام تركزت الدراسات الأثرية في السودان حول مجرى النيل على امتداده في الأراضي السودانية، لا سيما المناطق التي تقع إلى الشمال من العاصمة الخرطوم. ولربما يعود ذلك لأسباب البيئة والتضاريس التي تزيد من تكلفة البحث في المناطق الساحلية في شرق السودان، كما أن هناك سبباً آخر شجع على البحث الأثري في المناطق التي ترقد على جانبي النيل أو بالقرب منه، وهو أن معظم المواقع الصروحية تتركز حول مجرى النيل أيضاً (Manzo 2017: 1). بالإضافة إلى ذلك؛ في كثير من الأحيان تقف تداعيات حركة السكان وسلوكيات بعضهم العدائية عائقاً أمام التشجيع على إجراء الأبحاث الميدانية في المناطق النائية.

بعد أحاديث الرحالة والمؤرخين عن منطقة ساحل البحر الأحمر؛ لم تكن الأعمال الأثرية مكثفة في تلك المنطقة، إذ لم تحظ بما وجدته المناطق المطلة على النيل من الاهتمام البحثي. وتعد المسوحات الأثرية التي قام بها كروفوت من أقدم الأعمال الأثرية التي تم تنفيذها في شرق السودان بشكل عام، ومنطقة البحر الأحمر بشكل خاص خلال حقبة

الحكم الثنائي، فقد كان كروفوت مديرا لمصلحة الآثار في مطلع القرن العشرين، وقد ساعده ذلك على التطواف في مختلف مناطق السودان، وكانت أعماله شاملة غير مختصة في فترة بعينها، ما أتاح له الفرصة لتسجيل مواقع أثرية تعود لفترات متنوعة، وكان من بينها تلك المواقع التي تعود لعصور ما قبل التاريخ في تلك المنطقة (Crowfoot 1911; 1928). وبشكل عام نجد أن الدراسات الأثرية المختصة في شرق السودان ومنطقة البحر الأحمر قد بدأت في التمدد مع اهتمام أب علم آثار ما قبل التاريخ في السودان البريطاني أنطوني جون آركل (A. J. Arkell) عندما كان مديرا لمصلحة الآثار في الفترة بين 1938-1949م. فقد أجرى بعض المسوحات في منطقة أقوردات (خريطة. 1)، وهي منطقة تقع داخل الحدود الإريترية، وسجل أربعة مواقع تحتوي على بعض دلائل وجود الإنسان التي تعود للألفية الثانية قبل الميلاد وتمثل نماذج للفترة التاريخية في تلك المنطقة (Arkell 1954).



خريطة. 1: المناطق التي اكتشفت فيها آثار ما قبل التاريخ بشكل عام. كما تم إجراء دراسات أثرية متخصصة في شرق السودان وذلك في السهول الواسعة في تلك المنطقة، وكان من المناطق التي تمت دراستها منطقة خشم القربة (Shiner. et al : 1971)، فهي من ضمن المناطق التي شملت دراسات البعثة المشتركة بين جامعة الخرطوم وجامعة مسوديث الجنوبية الأمريكية (Elamin 1987: 37)، وقد كان ذلك في المنطقة الواقعة

إلى الشمال الشرقي من مدينة خشم القربة وعلى ضفاف نهر عطبرة (Elamin 1987: 39). وكانت هذه الدراسات بغرض المسح العام للمنطقة مع إجراء الحفريات، وكانت نتائج هذا العمل هي تسجيل 22 موقعا، كان من بينها مواقع العصر الحجري الوسيط حيث تم العثور على أنواع متميزة من الشفريات (Elamin 1987: 37) وتم تقسيم الدلائل المادية في هذه المنطقة إلى أطوار تاريخية وفقا للمناطق التي وجدت فيها. وكان من ضمن الأدلة التي تم العثور عليها الشظايا الحجرية وبقايا عظام الحيوانات (Elamin 1987: 40)، والفخار ذو الخطوط المموجة والفخار ذو الخطوط المموجة المتقطعة (Fattovich. et al 1984: 181). وتجدر الإشارة إلى أن البعثة المشتركة التي كانت عاملة في منطقة البطانة وشرق السودان قد غطت أيضا المنطقة التي تبعد حوالي 320 جنوب شرق النيل، وهي المنطقة حول نهر عطبرة في منطقة خشم القربة، وإلى الشرق منها إلى دلتا القاش، حيث تم إجراء مسح شمل مساحات واسعة، إضافة إلى تنفيذ حفريات في بعض المناطق (Fattovich. et al 1984: 174)، كما غطت هذه الدراسات مساحة تصل إلى حوالي 100,000 كلم² وهي تمتد من المناطق المتاخمة للنيل وحتى جبال البحر الأحمر. وقد كشفت عن نوع من الفخار يعود للفترة الممتدة من الألفية السادسة وحتى الألفية الأولى قبل الميلاد، وقد عرف بتقليد العتباي (Atbai Tradition) نسبة لصحراء العتباي. وهذا النوع من الفخار إما أن يكون قد تأثر بتقاليد نيلية أو إثيوبية، ومع ذلك فهو أقرب إلى أن يكون قد تأثر بالتقاليد النيلية المنتشرة في وسط السودان (Fattovich. et al 1984: 174).

وفي العام 1979 عُقدت اتفاقية بين جامعة الخرطوم وجامعة ليون الفرنسية الثانية 1979 تكونت بعثة سودانية -فرنسية مشتركة للقيام بأبحاث علمية متكاملة لتغطية سواحل البحر الأحمر السودانية بدراسة الآثار والجيولوجيا والجيومورفولوجيا، واشتركت من الجانب الفرنسي: جامعة ليون الثانية، ودار الشرق، والمجلس القومي للبحوث الفرنسية (C.N.R.S)، وشاركت جامعة الخرطوم ببعض الكليات ممثلة ببعض أقسامها، فقد شاركت من كلية الآداب أقسام الآثار والتاريخ والجغرافيا، وشاركت كلية العلوم بقسم الجيولوجيا. وقد أدار هذا المشروع الضخم؛ الباحث أحمد محمد علي الحاكم (رئيس قسم الآثار آنذاك). وقد تم إجراء مسح للمنطقة الممتدة من بورتسودان إلى أبو رماد شمالي حلايب. وقد تم تنفيذ ثلاثة مواسم (1979-1981) نُفذت خلالها مسوحات وحفريات اختبارية كشفت عن مقتنيات أثرية متنوعة تعود لفترات متعددة. وتجدر الإشارة إلى أن الأبحاث قد تركزت على سواحل البحر الأحمر السودانية (الحاكم 1981).

وتعد دراسات البعثة الإيطالية التابعة لجامعة نابولي من أكثر الدراسات انتظاما ومواصلة في شرق السودان، وبشكل أدق في منطقة كسلا والحدود السودانية الإريترية، فقد بدأ المشروع منذ ثمانينيات القرن الماضي بواسطة رودلف فاتوفيتش (R. Fattovich) أجرت هذه البعثة دراسات أثرية في منطقة كسلا والساحل الشرقي الذي يقع مع

الحدود الأثيوبية الإريترية السودانية، وذلك في إطار المشروع الآثاري الإيطالي في شرق السودان بقيادة رودلف فاتوفيتش. وشملت الدراسة منطقة دلتا القاش والمنطقة الواقعة مع الحدود السودانية الإريترية (Fattovich and Piperno 1981: 26). وقد تم العثور على عدد من المواقع السكنية التي تتخللها المقابر، وهي تشابه في شكلها موقع الخرطوم القديمة وذلك من حيث شكل الفخار ذي الخطوط المموجة وبعض الأدوات الحجرية (Fattovich and Piperno 1981: 27). وهذه المواقع توضح النمط الأساسي لمواقع العصر الحجري الوسيط والتي تأخذ شكل الاستقرار شبه الدائم أو التجوال في بعض الأحيان، كما توضح الأدلة المادية وجه الشبه بين هذه المواقع وتلك التي تم العثور عليها في مناطق أخرى (Fattovich. et al 1984: 181).

إضافة إلى مشاركة هذه البعثة في العمل المشترك مع الفريق السوداني الأمريكي في نفس هذه المنطقة، ومن خلاله تم تسجيل عدد من المواقع التي تعود للعصرين الحجري القديم والعصر الحجري الحديث (Fattovich. et al 1984: 176).

استؤنف العمل بعد انقطاع دام لمدة 16 عاما (Manzo 2012: 1) ولا يزال المشروع الإيطالي متواصلا في تلك المنطقة حتى اليوم تحت إشراف الباحث أندريا مانزو (A. Manzo). وقد كشفت الأعمال الآثارية في شرق السودان وفي منطقة كسلا بشكل خاص عن بقايا ثقافة البان قريف (Pan grave culture)، وقد ظهرت دلائل هذه الثقافة خلال أعمال البعثة الإيطالية في منطقة كسلا (Manzo 2012) كما ذكرها الباحث كريم صدر في معرض أعماله البحثية في مختلف مناطق شرق السودان (Sadr 1987).

أيضا قام الباحث كريم صدر بإجراء دراسات في مناطق صحراء العتباي، وقد جاءت دراساته بوصفه عضوا في بعض المشاريع المشتركة، كعمله مع الأخوين الإيطاليين أنجلو وألفريدو كاستيغليوني، أو مشاركته ضمن أعمال الفريق السوداني الأمريكي في شرق السودان، كما أنه قام بإجراء أعمال مسح بشكل مستقل، وقد تم تسجيل حوالي 256 موقعا أثريا في مختلف مناطق جنوب صحراء العتباي بشرق السودان، بالإضافة إلى إجراء بعض الحفريات من أجل معرفة التورخ الطبقي والترايبية الزمنية لهذه المنطقة (Sadr 1988).

كما قام أعضاء مركز أبحاث الصحراء الشرقية (CERDO) بإجراء مسح آثاري غير منظم في منطقة الصحراء الشرقية وفي منطقة الحدود السودانية المصرية، وقد قام بذلك العمل؛ الأخوان أنجلو كاستيغليوني (Angelo Castiglioni) وألفريدو كاستيغليوني (Alfredo Castiglioni)، وقد سجلوا عددا من الظواهر الأثرية في المنطقة المذكورة (Sadr. et al 1995)، وتعد دراساتهم من الأهمية بمكان، لأنها جابت أعماق الصحراء، فقد كان لهذه البعثة دور كبير في توثيق آثار الصحراء الشرقية وسواحل البحر الأحمر، وذلك لأنهم غطوا مساحات كبيرة في تلك المناطق المذكورة (Sadr. et al 1994).

هذا وقد أجريت بعض الدراسات الآثارية على شواطئ البحر الأحمر لتشمل مختلف الحقب ما قبل التاريخية كما الحقب التاريخية أيضا. وكان من ضمن هذه الدراسات؛

دراسة جامعة استوني بروك (Stony Brook) بنيو يورك، وكان ذلك تحت إشراف الباحث أمانويل بين وجون شيحا في سواحل البحر الأحمر قبالة الحدود الإريتية، وتم الكشف عن مواقع تعود للعصر الحجري القديم الأوسط، والعصر الحجري القديم الأعلى، إضافة إلى العصر الحجري الحديث. وقد وضحت هذه الدراسات نوعاً من التكيف للإنسان الذي عاش على شواطئ البحر الأحمر خلال البلايستوسين المتأخر، وأمثلة هذه المواقع تعد نواة لانتشار الإنسان وخروجه من إفريقيا عبر باب المنذب إلى أوراسيا، أي إلى أوروبا وآسيا (Amanuel and Shea 2007: 1).

وبعد ذلك قامت بعثة جمعية أبحاث الآثار السودانية (SARS) بإعادة مسح وتسجيل بعض المواقع الأثرية التي كان الأخوان الإيطاليين أنجلو وألفريدو كاستيغليوني قد سجلها من قبل، وذلك من خلال مشروع طريق كروسكو، حيث تمت دراسة النقوش المصرية في الصحراء الشرقية (Davies 2014).

أيضاً قام الباحثان غانم وحيدة وعبد الرحيم محمد خبير بإجراء دراسات تحليلية لفخار العصر الحجري الحديث في منطقة أركويت، ونشراً تقريراً بأعمالهما (Wahida and Khabir 2003).

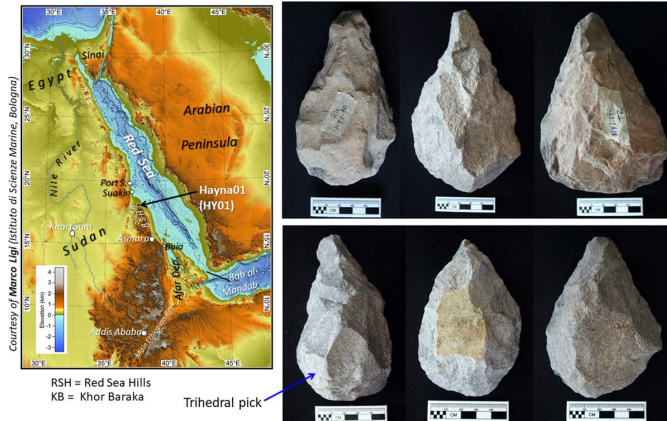
وفي العام 2011 تم إجراء بحث مشترك بين جامعة نابولي الإيطالية وجامعة الخرطوم لاستكشاف شواطئ البحر الأحمر وتسجيل الأدلة الأثرية في المنطقة، وقد شارك في هذا العمل عدد من الباحثين من جنسيات مختلفة لكن معظمهم من الإيطاليين (Manzo 2012). وتجدر الإشارة إلى أن فريق الهيئة العامة للآثار والمتاحف السودانية قد قام بإجراء مسح أثري في منطقة أعالي نهر عطبرة وستيت، وبالتحديد في المنطقة المستهدفة بإنشاء خزان على نهر ستيت، وقد قاموا بتسجيل عدد 136 موقعاً أثرياً (Manzo 2015: 234)، وأضاف إليها الفريق الإيطالي التابع لجامعة نابولي عدد 21 موقعاً (Manzo 2015: 234). كما كان لمشروع الدراسات الآثرية والبيئية والثقافية التابع لقسم الآثار-جامعة الخرطوم، في منطقة البحر الأحمر أثر كبير في تغطية البقاع الساحلية في منطقة سواكن وما حولها من الشمال إلى الجنوب، وهذا المشروع يقع تحت إشراف الباحث أحمد حسين عبد الرحمن الذي أجرى مع الفريق المكون من أعضاء هيئة التدريس بقسم الآثار، إضافة إلى الطلاب والخريجين والباحثين في عدد من التخصصات ذات الصلة بعدد من مواسم المسح، مع إجراء بعض الحفريات الاختبارية في المنطقة المذكورة (Adam 2019a: 487). وما يهمني في هذه الجزئية أنه قد تم الكشف عن بعض أدلة آثار ما قبل التاريخ من خلال المسوحات التي تم تنفيذها في المنطقة الممتدة بين أركويت وسنكات، إذ وجدت أدلة العصر الحجري القديم وكذا العصر الحجري الحديث حول المجاري المائية الصغيرة (Adam 2019b).

كما أن المشروع المشترك بين بعثة جامعة النيلين ومجموعة من الباحثين البولنديين في الصحراء الشرقية في منطقة أسفل نهر عطبرة قد كشف عن ترسبات طبقية تعود لنهاية

البلايستوسين وحتى حقبة الهولوسين، وقد وُجدت هذه الترسبات بالقرب من بحيرات قديمة كانت نشطة حتى حقبة الهولوسين المبكر، لكن سرعان ما تقلصت خلال الهولوسين المتأخر، وقد حوت هذه الترسبات مخلفات ثقافية تعود للعصر الحجري القديم الأسفل والفترات التي تلتها (Masojc. et al 2018). كما أن جامعة النيلين قد أجرت دراسات في منطقة أسفل نهر عطبرة عن طريق أعضاء هيئة التدريس مع الباحثين والخريجين، وذلك تحت إشراف الباحث أحمد حامد نصر (Nassr. et al 2018).

التسلسل الثقافي في منطقة البحر الأحمر:

تعود أقدم المخلفات الأثرية إلى العصر الحجري القديم الأسفل والأوسط، كما ظهرت دلائل العصر الحجري القديم الأعلى أيضا في مناطق الصحراء الشرقية. وقد تم العثور على أدلة هذه الفترات كذلك في الضفة الغربية لنهر عطبرة، كما وجدت معها بعض بقايا الثدييات الكبيرة كالأفيال والكركدن وأنواع الغزلان (Cremaschi et al. 1986: 47-48; Shiner 1971: 296, 306-308) كما دلت الأبحاث الأخيرة على انتشار ثقافة العصر الحجري القديم الأسفل في وجهه الآشولي، وكان ذلك في مناطق عقيق وخور بركة وإلى الجنوب من مدينة سواكن، وقد تم تسجيل موقعين كبيرين وهما هينا 1 وهينا 2، والتي تبعد حوالي 35 كم من الساحل الغربي للبحر الأحمر. بالإضافة إلى انتشار الأدوات الآشولية بشكل منعزل في مناطق كثيرة. وقد شمل العمل إجراء مسح للمنطقة المستهدفة بالدراسة (شكل 1)، وكذلك تم جمع اللقى السطحية من بعض المربعات بشكل منظم، إضافة إلى حفر بعض المربعات الاختبارية (Amanuel. et al 2017: 255). كما وجدت دلائل الفؤوس اليدوية التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل في منطقة خور الهودي (Arkell 1949: 34).



شكل 1: المنطقة التي تمت دراستها ضمن المشترك بين جامعة لوييفيل الأمريكية وجامعة النيلين (Amanuel. et al 2017: 256).

وخلال تلك الأدلة الأثرية يبرز وجود مخلفات البشر الأوائل الذين لا يخرج وجودهم عن احتمالين؛ إما أن يكونوا قد عاشوا في المنطقة خلال حقبة البلايستوسين المتأرجحة بين الرطوبة والجفاف والحرارة والبرودة، أو إنهم مروا بالمنطقة عابرين إلى سواحل البحر المتوسط. وخلاصة الأمر أنه قد وجدت دلائل الإنسان الماهر (Homo Erectus) مع الأدوات الآشولية التي تمثل هذه المرحلة (1: 2007: Amanuel and Shea).

كانت الأهداف الأساسية إبان تنفيذ مشروع البطانة الأثري المشترك بين جامعة الخرطوم وجامعة ميسوديث الجنوبية الأمريكية تتمثل في تغطية المنطقة المذكورة بالدراسة وتسجيل المعالم الأثرية الموجودة، إضافة إلى البحث عن أشكال التواصل الثقافي والحضاري بين النيل والسهول الممتدة في منطقة البطانة وحتى تخوم البحر الأحمر خلال العصر الحجري الحديث، بالفعل تم العثور على كثير من الأدلة التي تشير إلى وجود إنسان العصر الحجري الحديث في مختلف المناطق التي شملتها الدراسة، وبخاصة المناطق التي تمتد من منطقة شق الدود التي تقع في الجنوب الشرقي من موقع النقعة الأثري وحتى منطقة خشم القربة، وإلى الشرق منها (1980: Marks et al.).

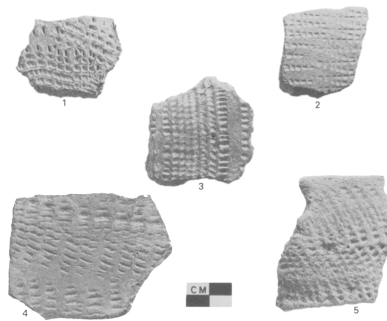
كما تم التعرف على آثار العصر الحجري الوسيط في منطقة خشم القربة، حيث تم العثور على الأدوات الحجرية بمختلف أشكالها، وبخاصة تلك الشفارات المميزة (Elamin 1987: 37). قادت تلك الموجودات الأثرية الباحثين القائمين على أمر المشروع البحثي إلى تقسيم الدلائل المادية في هذه المنطقة إلى أطوار تاريخية تعتمد في تفاصيلها على شقين، فالشق الأول يتمثل في المادة الأثرية التي تم العثور عليها، وتتمثل في مختلف الأدوات الحجرية، لا سيما الدقيقة منها، وكذلك تتمثل في قطع الفخار ذي الخطوط المموجة والفخار ذي الخطوط المتوجة المتقطعة (لوحه. 1) (181: 1984: Fattovich. et al)، بالإضافة إلى المخلفات الإحيائية المتمثلة في بقايا عظام الثدييات وأشكال القواقع والأصداف.

أما الشق الثاني فيتمثل في الفترة التي تعود إليها، إذ قام الباحثون بتسمية الأطوار التاريخية باسم المنطقة التي يوجد فيها الموقع مثل طور صاروبا وهي منطقة معروفة في خشم القربة (40: 1987: Elamin). ومن الملاحظ أن هناك أنواعا من الفخار غير محروق بشكل جيد. وتجدر الإشارة إلى أن فخار العصر الحجري الوسيط قد بدا بزخارفه المميزة له في الفترة المتأخرة من العصر الحجري الوسيط، فقد ظهرت أدلة الفخار ذي الزخارف ذات الخطوط المموجة بأشكالها المتطورة والتي ظهرت مؤخرا مثل تقنية الطبقات المهززة ذات الأشكال المتعرجة وكذلك زخرفة المشط، أما الأشكال التقليدية المموجة والمموجة المتقطعة فإنها لا توجد بكثرة، وهذا يشير إلى أن الموقع قد ازدهر في أواخر العصر الحجري الوسيط وامتد استغلال المنطقة للسكن خلال العصر الحجري الحديث (لوحه. 2)، فرمما يكون ذلك خلال الألفية السادسة قبل الميلاد.

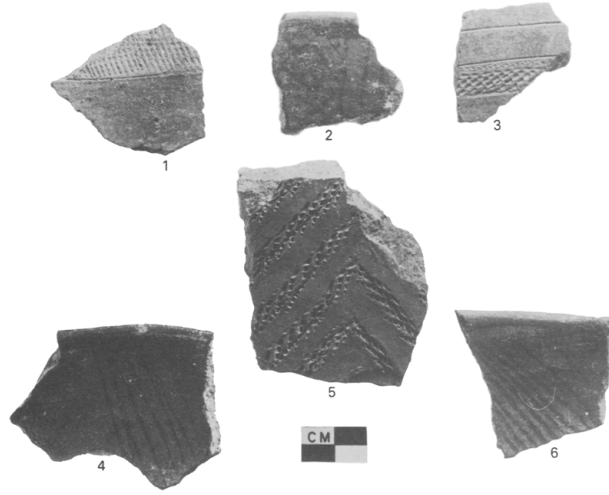
كما أشارت منشورات الباحث كريم صدر إلى وجود مجموعات زراعية وبعض منها رعوية بدوية متنقلة تنتشر في جنوب صحراء العتباي وحتى إثيوبيا. ومن الواضح أن ثقافة هذه المجموعات قد امتدت منذ العصر الحجري الحديث وحتى عصر مروي، وذلك في

التاريخ الواقع بين 3750 ق. م وحتى 350 م (Sadr 1988: 381). كما قامت هذه الدراسة بتتبع حياة المجتمعات الرعوية القديمة، مقارنة إياها بالمجتمعات الحية والتي يمارس بعض أفرادها حرفتي الرعي والزراعة كالبنني عامر والنوير. وقد حاول كريم صدر فهم ثقافة هذه المجتمعات ليستطيع من خلالها تفسير السجل الأثري. وهذه المجتمعات الحية لها تقاليد تنظيمية توزع من خلالها مهام كل فرد في المجتمع، فعند النوير يتم مراعاة الجنس والعمر، حيث يقوم الرجال اليافعون برعي الماشية، وتقوم النساء بالزراعة، بينما يقسم البنني عامر مهام الزراعة والرعي على العشائر والأسر، فهناك بعض العشائر تكون مهتمة بالرعي، بينما الأخرى تكون مهتمة بالزراعة (Sadr 1988: 387). ويبدو أن هذه التقسيمات هي تقسيمات تلقائية تعارفت عليها المجتمعات منذ زمن بعيد وأصبحت تقليدا تتوارثه الأجيال. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المواقع مليئة بالمقتنيات الأثرية المتنوعة والتي تتمثل في الأدوات الحجرية وشقف الفخار (لوحة 1).

وإذا أمعنا النظر إلى ما تم العثور عليه في منطقة كسلا والمنطقة الممتدة على الحدود السودانية الإثيوبية الإريتية فإننا سنلاحظ أيضا وجود دلائل ثقافة الفترة المسماة بفترة ما قبل التاريخ المتأخرة أيضا (Late Prehistory) وهي أيضا تمثل العصرين الحجري الوسيط والحجري الحديث مجتمعين، فقد برزت ثقافة هذين العصرين في هذه المنطقة المذكورة بكثافة، متمثلة في مقابر العصر الحجري الوسيط، والتي تتعدى وجودها إلى أن تكون ذات شبه ثقافي بما تم العثور عليه في ثقافة الخرطوم البكرة (Early Khartoum) (Fattovich and Piperno 1981: 26). مُضاف إلى ذلك وجود دلائل العصر الحجري الحديث التي عُثِر عليها في المنطقة الشاسعة الواقعة بين نهري القاش وعطبرة، وهي المنطقة التي تتسم بوجود دلائل ثقافية تعود للعصر الحجري الحديث، وقام فريق العمل بتسميتها بتلك المنطقة، وهي مجموعة ملاوية (Malawiya Group) (Manzo 2017: 6).

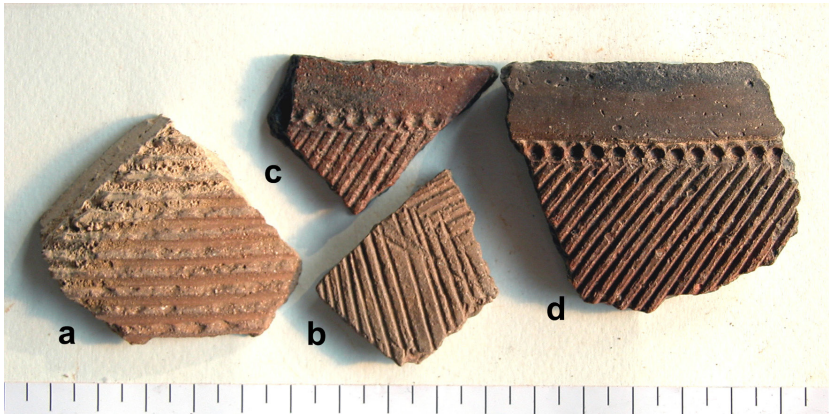


لوحة 1: نماذج لفخار طور صاروبا الذي يعود للعصر الحجري الوسيط (Fattovich et al 1984: 179).



لوحة 2: نماذج لفخار العصر الحجري الحديث من منطقة كسلا (Fattovich. et al 1984: 181).

واستمر وجود الإنسان بعد تلك الفترة خلال فجر التاريخ، بدءًا من عصر حضارة كرمة التي ازدهرت خلال الفترة من 1450-2500 ق. م (Manzo 2012: 76)، إضافة إلى الثقافات المعاصرة لها، كحضارة المجموعات وثقافة البان قريف (Pan grave culture) وهي ثقافة معاصرة للمجموعة الحضارية الثالثة وذلك في الفترة بين حوالي 1450-2200 ق.م، وأيضاً تشابهها في محتوياتها الثقافية (لوحة 3)، والتي ترتبط ببناء المقابر وأدوات الاستعمال اليومي، وبخاصة الأدوات الفخارية (Sadr 1987).



لوحة 3: نماذج لفخار كرمة والبان قريف في منطقة شرق السودان (Manzo 2012: 100).

خلاصة:

كثيراً ما يتأثر الحراك الثقافي والاجتماعي بالمؤثرات المناخية والبيئية التي تحيط به، كما يؤثر الموقع الجغرافي بشكل أصيل على حياة الإنسان، كل ذلك نلتمسه في التداخلات الثقافية في منطقة البحر الأحمر وشرق السودان بوصفها منطقة عبور ربطت بين مناطق عدة في المنطقة المحيطة بالبحر الأحمر.

كان للدراسات الآثارية عظيم الأثر في تنشئة هذه الورقة. وعلى الرغم من أن المنطقة كلها لم تحظ بتغطية بحثية شاملة؛ إلا إن الذي تم قد أمدنا بكثير من البيانات التي أعطينا لمحات عن تاريخ تلك المنطقة، فقد ظهرت بعض بؤر التجانس بين النيل والصحراء ثم مرتفعات البحر الأحمر، وتشكلت روابط ثقافية بدت معاملها واضحة في السجل الأثري، سواء كان ذلك في منطقة الدراسة هذه، أو في أواسط السودان على امتداد النيل وغيره من مناطق السودان التي كانت مأهولة بالسكان خلال عصور ما قبل التاريخ وفجره.

إن المنطقة ما زالت بكرة تحتاج إلى من يزيح عنها الغبار بحثاً عن تاريخ الإنسانية فيها، سيما وأنها ذات أهمية ثقافية كبيرة بحكم موقعها الجغرافي في قلب الكرة الأرضية. ومن هنا نطلق النداء للباحثين في مختلف مجالات الثقافة أن يلتفتوا إلى تلك المنطقة التي يمكن أن تفك كثيراً من الطلاسم وتحل عدداً من الألغاز المتعلقة بتاريخ البشرية.

قائمة المراجع:

- الحاكم، أحمد محمد علي. المشروع السوداني الفرنسي للأبحاث العلمية في منطقة البحر الأحمر السودانية 79-1981، «آداب» (مجلة كلية الآداب - جامعة الخرطوم) العدد الخامس، 1983: 30-47.
- Adam, A. H. A., 2017. The Archaeology and Heritage of the Sudanese Red Sea Region: Importance, Findings, and Challenges. (ATra) Aree di transizione linguistiche e culturali in Africa. il protocollo UPI - University Press Italiane : 188-198.
- Adam, A. 2019a. New perspectives on the archaeology of the medieval period in the Red Sea area of the Sudan. AZANIA, VOL. 54, NO. 4: 487-500.
- Adam, A. 2019b. "The archaeological, environmental and ethnographical survey of the Red Sea area between Arkawet and Sinkat, preliminary report, first season September 2015 - April 2016." Adab.
- Amanuel. B. and Shea. J. J. 2007. Reconnaissance of Prehistoric Sites in the Red Sea coast of Eritrea, NE Africa. Journal of Field Archaeology, Vol. 32: 1-16.

- Amanuel B., Parth R. C. and Nassr, A. 2017. New discovery of Acheulean occupation in the Red Sea coastal region of the Sudan. wileyonlinelibrary.com/journal/evan: 255-257.
- Ambrose, S. H. 2003. Population bottleneck. In Amanuel, B. and Shea, J. J. 2007. Reconnaissance of Prehistoric Sites in the Red Sea coast of Eritrea, NE Africa. *Journal of Field Archaeology*, Vol. 32: 1-16.
- Arkell, A. J. 1949. The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan. Sudan Antiquities Service Occasional Papers No. 1. Khartoum.
- Arkell, A.J. 1954. Four Occupation Sites at Agordat. *Kush* 2: 33-62.
- Arkell, A. J. 1975. The Prehistory of the Nile Valley. *Hand buch der Orientalisk Lei den*, Köln.
- Barnard, H. 2012. Introduction to Part I. From Adam to Alexander (500.000-2500 Years Ago). In Barnard and Duistermaat (eds.) 2012: 2-23.
- Cremaschi, M., D'Alessandro, A., Fattovich, R. and Piperno, M. 1986. Gash Delta Archaeological Project: 1985 Field Season. *Nyame Akuma* 27: 45-48.
- Crowfoot, J.W. 1928. Some Potsherds from Kassala. *Journal of Egyptian Archaeology* 14: 112-116.
- Crowfoot J. 1911. "Some Red Sea ports in the Anglo-Egyptian Sudan." *Geographical Journal* 37: 523-550.
- Davies, V.W. 2014. The Korosko Road Project. Recording Egyptian inscriptions in the Eastern Desert and elsewhere. *Sudan & Nubia* 18: 30-44.
- Elamin. Y. M. 1987. "Terminal Paleolithic Blade Assemblages from Khashm elgirba, Eastern Sudan". *Azania*, Vol. XXII: 37-45.
- Fattovich. R. and Piperno. M. 1981. "Survey of the Gash Delta". *Nyame Akuma* 19: 26-30.
- Fattovich, R., Marks, A.E. and Mohammed Ali, A. 1984. The archaeology of the Eastern Sahel, Sudan: preliminary results. *African Archaeological Review* 2: 173-188.
- Gilbert. W. H. and Asfaw. B 2008. *Homo erectus Pleistocene Evidence from the Middle Awash, Ethiopia*. University of California Press, Ltd.

London, England.

- Khalidi, L. 2009. Holocene Obsidian Exchange in the Red Sea Region. Petraglia and J.I. Rose (eds.), the Evolution of Human Populations in Arabia, Vertebrate Paleobiology and Paleoanthropology, Springer Science + Business Media B.V: 279-291.
- Kipfer, A. B. 2007. Dictionary of Artifact. Blackwell publishing. United Kingdom.
- Manzo, A. 2012. From the sea to the deserts and back: New research in Eastern Sudan. British Museum Studies in Ancient Egypt and Sudan 18: 75-106.
- Manzo, A. ,2015. Italian Archaeological Expedition to the Eastern Sudan of the Università degli studi di Napoli 'L'Orientale'. Preliminary Report of the 2014 Field Season. Newsletter di Archeologia CISA6: 231-240.
- Manzo, A. 2017. Eastern Sudan in its Setting The archaeology of a region far from the Nile Valley. Cambridge Monographs in African Archaeology 94.
- Manzo, A., Beldados, A., Carannante, A., Usai, D. and Zoppi, V. 2012. Italian Archaeological Expedition to the Sudan of the University of Naples 'L'Orientale'. 2011 Field Season. Naples, Il Torcoliere, Università degli Studi di Napoli 'L'Orientale'.
- Marks, A. E., Mohammed-Ali, A. S., Hays, T. R. and Elamin, Y. 1980. Survey of the Northern Butana. Nyame Akuma 16:30-35.
- Masojc, et al. 2019. Saharan green corridor and middle Pleistocene hominin dispersals across the eastern desert, Sudan. Journal of human evolution 130: 141-150.
- Nassr, A. H, Alkhidir, H. M and Jadain, M. A. 2018. Prehistoric investigations during the 2017 archaeological survey of the EDAR Project in the Eastern Desert along the Lower Atbara, Sudan. Sudan and Nubia, the Sudan Archaeological Research Society, No. 22: 21-28.
- Sadr, K., 1987. The territorial expanse of the Pan-Grave Culture', ANM 2: 265-93.

- Sadr, K. 1988. Settlement Patterns and Land Use in the Late Prehistoric Southern Atbai, East Central Sudan. *Journal of Field Archaeology* 15: 381-401.
- Sadr, K., Castiglioni, A., Castiglioni, A. and Negro, G. 1994. "Archaeology in the Nubian Desert." *Sahara* 6: 69-75.
- Sadr, K., Castiglioni, A. and Castiglioni, A. 1995. Nubian Desert Archaeology: a Preliminary View. *Archéologie du Nil Moyen* 7: 203-235.
- Shiner, J.L., Marks, A., Chmielewski, V., de Heinzelin, J. and Hays, T.R. 1971. The Prehistory and Geology of Northern Sudan. Part II. Dallas, unpublished report to the National Science Foundation, Grant GS 1192.
- Tchernov, E. 1992. Biochronology, Palaeoecology and dispersal events of Hominids in the southern Levant. In T. Akazawa, K. Oaki and T. Kimura, eds., *The Evolution and Dispersal of modern Human in Asia*. Tokyo: Hokusen- Sha: 149-188.
- Wahida. G and Khabir. A. M. 2003. Erkowit, a Neolithic site in the Red Sea Hills (Sudan), interim report on the Pottery. *Sudan and Nubia* 7: 62-65.